

جامعة ابن خلدون تيارت

كلية الحقوق والعلوم السياسية

قسم العلوم السياسية

محاضرات: تاريخ الفكر السياسي س02

أستاذ المادة: عمر بكيـري

المحور الرابع: الفكر السياسي الغربي في

القرن العشرين

تمهيد:

يعتبر القرن العشرين كان قرن التطرف والأزمات والحروب الشاملة، فقد شهد تحولات جذرية في الفكر والممارسة السياسية، أدت إلى صعود أنظمة شمولية (توتاليتارية) غير مسبوقة في التاريخ، كالفاشية والنازية، والتي سعت إلى السيطرة الكاملة على الدولة والمجتمع والفرد، وارتكبت فظائع جماعية باسم أيديولوجياتها، ومن جهة أخرى ظهرت تيارات نقدية جذرية داخل الفكر الغربي نفسه، شككت في أسس الحداثة والعقلانية والتقدم، وحاولت كشف آليات السلطة والمعرفة الخفية التي تعمل في المجتمع، وأخيرا، أدت هذه التحولات إلى نقاشات واسعة حول طبيعة الحداثة نفسها بظهور فكر "ما بعد الحداثة" الذي شكك في كل المفاهيم الأساسية التي قام عليها الفكر السياسي الغربي الحديث.

المحاضرة 01: الفكر السياسي الغربي الشمولي

(الفاشية والنازية)

مقدمة

شهدت الفترة ما بين الحربين العالميتين (1918-1939) أزمة عميقة لليبرالية الأوروبية، فالدمار غير المسبوق للحرب العالمية الأولى، والأزمة الاقتصادية الكبرى عام 1929، أدتا إلى فقدان الثقة في الديمقراطية البرلمانية والرأسمالية، وظهر أيدولوجيات شمولية (توتاليتارية) قدمت وعودا بالخلاص واستعادة كرامة الأمة، حيث هدفت هذه الأيدولوجيات ليس فقط إلى السيطرة على السلطة السياسية، بل كذلك السيطرة الكاملة على المجتمع والفرد، فإذا كانت الشيوعية هي ثورة "يسارية" ضد الرأسمالية الليبرالية، فإن الفاشية والنازية كانتا ثورة "يمينية" ضدها كذلك، حيث اشتركتا في كراهية الليبرالية، الفردية، الديمقراطية البرلمانية، والمادية، لكنهما اختلفتا مع الشيوعية في كونهما لم تسعيا إلى مجتمع لا طبقي، بل إلى مجتمع عضوي تراتبي، قائم على أساس القومية المتطرفة، العنصرية، وتمجيد الحرب والعنف.

أولا: الجذور الفكرية والأسس الأيدولوجية للفاشية والنازية

نشأت الفاشية والنازية في فترة ما بين الحربين العالميتين، في ظل أزمات اقتصادية خانقة (الكساد الكبير)، إحباط سياسي (معاهدة فرساي)، خوف من المد الشيوعي، ورغم وجود اختلافات بينهما، إلا أنهما تشتركان في مجموعة من الخصائص الفكرية والأيدولوجية، من أهمها:

القومية المتطرفة: تمجيد الأمة والدولة واعتبارها قيمة عليا تسمو فوق كل القيم الأخرى، فهذه القومية العدائية ترى أن الصراع بين الأمم هو قانون التاريخ.

اللاعقلانية: رفض العقلانية والمادية، وتمجيد الإرادة، الغريزة، العاطفة، والأسطورة كقوى محركة للتاريخ، حيث استلهموا ذلك من فلاسفة مثل نيتشه (رغم تحريف فكره) الذي تحدث عن "إرادة القوة" و"الإنسان الأعلى".

الداروينية الاجتماعية: تطبيق مبدأ "البقاء للأصلح" على العلاقات بين الأمم والأعراق، وتبرير الحرب والصراع كأدوات للانتقاء الطبيعي.

نظريات النخبة: استلهم أفكار مفكرين مثل غايتانو موسكا وفيلفريدو باريتو، الذين رأوا أن المجتمع ينقسم دائما إلى نخبة حاكمة قليلة، وجماهير محكومة كثيرة، وأن الديمقراطية مجرد وهم.

العداء للديمقراطية، الليبرالية والاشتراكية: اعتبار الديمقراطية نظاما فاسدا وعاجزا، والليبرالية فكرا فرديا أنانيا يفكك وحدة الأمة، والاشتراكية (خاصة الماركسية) نظرية مادية أممية تحدد الهوية القومية.

ثانيا: الفاشية الإيطالية:

نشأت الفاشية في إيطاليا بعد الحرب العالمية الأولى، بقيادة بينيتو موسوليني (1883-1945)، وهو اشتراكي سابق تحول إلى قومي متطرف، حيث استغلت الفاشية شعور الإيطاليين بالإحباط من نتائج الحرب، والخوف من الثورة الشيوعية، وقدمت نفسها كحركة "ثورية" جديدة، تتجاوز اليسار واليمين، وتهدف إلى خلق "إنسان جديد" وإعادة إيطاليا إلى أجداد الإمبراطورية الرومانية، حيث لم تكن للفاشية نظرية سياسية متماسكة في البداية، بل كانت خليطا من الأفكار القومية، النقابية الثورية، والعداء لليبرالية والاشتراكية، لكن جوهرها كان تمجيد الدولة باعتبارها القيمة العليا، وهي عامة تقوم على عدة مبادئ هي: **تقديس الدولة:** الدولة هي كل شيء، والفرد لا قيمة له خارج الدولة، حيث يقول موسوليني: "كل شيء في الدولة، لا شيء خارج الدولة، لا شيء ضد الدولة".

مبدأ الزعيم: الإيمان المطلق بالزعيم الذي يجسد إرادة الأمة، وله سلطة مطلقة لا تناقش.

النقابوية: تنظيم المجتمع في نقابات مهنية (عمال وأصحاب عمل) تحت سيطرة الدولة، كبديل للصراع الطبقي والديمقراطية البرلمانية.

العنف والحرب: تمجيد العنف كوسيلة لتطهير المجتمع، واعتبار الحرب ضرورة حيوية لقوة الأمة وتوسعها.

لقد رفضت الفاشية الديمقراطية القائمة على الانتخابات والأحزاب، واقترحت بديلا هو الدولة النقابوية (Corporate State)، أين يتم تنظيم المجتمع في نقابات (Corporations) تمثل أصحاب العمل

والعمال في كل قطاع من قطاعات الاقتصاد، تعمل تحت إشراف الدولة لضمان التعاون الطبقي وتحقيق المصلحة الوطنية، وفي قمة هذا النظام يقف "الدوتشي" (Il Duce)، أي القائد، الذي يجسد إرادة الأمة.

ثالثا: النازية الألمانية

كانت النازية (الاشتراكية القومية) في ألمانيا، بقيادة أدولف هتلر (1889-1945)، نسخة أكثر تطرفا وعنصرية من الفاشية، فإذا كانت الدولة هي القيمة العليا في الفاشية، فإن العرق (Race) هو القيمة العليا في النازية، حيث استمدت النازية جذورها الفكرية من تقاليد فكرية وفلسفية: القومية الرومانسية، الفلسفة اللاعقلانية (نيتشه)، الداروينية الاجتماعية، ومعاداة السامية العنصرية التي انتشرت في أوروبا في نهاية القرن التاسع عشر.

في كتابه "كفاحي" الذي كتبه في السجن في العشرينات، قام هتلر بدمج هذه الأفكار في رؤية سياسية شاملة تعتبر التاريخ صراعا مميّتا بين الأعراق من أجل البقاء، حيث يأت في قمة الترتيب العرقي "العرق الآري"، ويعتبر الألمان في نظر هتلر أنقى ممثليه، فهذا العرق هو العرق الخلاق الوحيد في التاريخ، ومصدر كل الحضارات، في حين يقف اليهود أسفل الترتيب، بل هم "عرقا طفيليا"، "مدمرا للثقافة"، ومسؤولا عن كل شرور العالم، وهم يشكلون مؤامرة عالمية تهدف إلى تدمير العرق الآري والسيطرة على العالم. من هذه الرؤية العنصرية، استمدت النازية برنامجها السياسي:

تطهير العرق: يجب الحفاظ على نقاء العرق الآري من خلال القضاء على "العناصر الدخيلة"، وخاصة اليهود، ومنع التزاوج مع الأعراق "الدنيا"، وهذا أدى في النهاية إلى الهولوكوست.

المجال الحيوي: تحتاج الأمة الألمانية إلى "مجال حيوي" في أوروبا الشرقية لتنمو وتزدهر، وهذا يتطلب التوسع شرقا، واستعباد أو إبادة الشعوب السلافية "الدنيا" التي تقطن هذه الأراضي.

مبدأ القائد: يجب أن تخضع الأمة بالكامل لإرادة القائد، "الفوهرر"، الذي يجسد روح العرق، والذي لا يخضع لأي قانون أو مؤسسة، حيث إرادة الفوهرر هي القانون الأعلى.

المحاضرة 02: الفكر السياسي الشيوعي بعد ماركس

مقدمة

يمثل الفكر الشيوعي بعد ماركس مرحلة حاسمة في تطور النظرية الماركسية، حيث انتقلت الماركسية من إطارها النظري الفلسفي إلى التطبيق العملي والتجربة الثورية، فبعد وفاة ماركس وإنجلز، واجه الفكر الشيوعي تحديات جديدة فرضتها التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، حيث لم تعد المسألة مقتصرة على تفسير العالم، بل أصبحت تتعلق بكيفية تغييره، وهو ما استدعى إعادة قراءة النصوص الماركسية وتطويرها لتتلاءم مع الواقع المتغير، وقد شهدت هذه المرحلة ظهور مفكرين وقادة ثوريين حاولوا تكييف الماركسية مع ظروف بلدانهم الخاصة، مما أدى إلى تنوع كبير في التفسيرات والتطبيقات، من روسيا القيصرية المتخلفة اقتصاديا إلى الصين الزراعية، ومن أوروبا الصناعية إلى العالم الثالث، أين تطورت اجتهادات نظرية متباينة تبنت جميعها التحليل الماركسي لكنها اختلفت في فهمها لطبيعة الثورة، مساراتها وأدواتها، حيث برزت في هذا السياق ثلاث مدارس فكرية كبرى أعادت صياغة الماركسية هي اللينينية، التروتسكية في روسيا، والماوية في الصين.

أولا: الشيوعية عند لينين (1870-1924)

كانت الثورة البلشفية في روسيا عام 1917 حدثا تاريخيا محوريا، فلأول مرة في التاريخ نجح حزب ماركسي في الاستيلاء على السلطة في دولة كبرى، وبدأ في تطبيق برنامج ثوري جذري يهدف إلى بناء الاشتراكية، حيث جاء ذلك على يد قائد الثورة، فلاديمير لينين ومن أهم أفكاره:

1. نظرية الحزب الطليعي:

في كتابه "ما العمل؟"، رأى لينين بأن الطبقة العاملة، إذا تركت لنفسها، لن تطور سوى "وعيا نقابيا"، يركز على المطالب الاقتصادية المباشرة (تحسين الأجور وظروف العمل) فقط، أما الوعي الثوري الحقيقي، أي فهم ضرورة الإطاحة بالنظام الرأسمالي بأكمله، فيجب أن يأتي من خارج الطبقة العاملة، من قبل طليعة من

"الثوريين المحترفين" المنظمين في حزب سري، مركزي، ومنضبط، حيث يؤطر هذا الحزب الطليعي الطبقة العاملة، يثقها، ينظمها، ويقودها إلى الاستيلاء على السلطة.

2. الإمبريالية والثورة العالمية:

واجه لينين معضلة نظرية متعلقة بكيفية حدوث ثورة اشتراكية في بلد متخلف مثل روسيا، فبينما تنبأ ماركس بأن الثورة تحدث في البلدان الرأسمالية المتقدمة، رأى لينين بأن الرأسمالية قد دخلت مرحلة جديدة، هي مرحلة الإمبريالية، حيث تقوم الدول الرأسمالية المتقدمة بتصدير رؤوس أموالها واستغلال المستعمرات، وهذا الاستغلال يسمح للبرجوازية في هذه الدول بتحقيق أرباح هائلة، تستخدمها "لرشوة" الطبقة العاملة في بلدانها وتحسين أوضاعها، مما يضعف الروح الثورية لديها، ونتيجة لذلك انتقل التناقض الرئيسي في النظام الرأسمالي من الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا داخل كل بلد، إلى الصراع بين الدول الإمبريالية والمستعمرات، وبذلك تصبح الثورة ممكنة في البلدان المتخلفة مثل روسيا، حيث يكون الاستغلال أشد والبرجوازية أضعف، ومنها ستشعل شرارة الثورة العالمية في الغرب كله.

3. الدولة والثورة:

في كتابه "الدولة والثورة" هاجم لينين بشدة الاشتراكيين الديمقراطيين الذين اعتقدوا بإمكانية استخدام الدولة البرجوازية لتحقيق الاشتراكية، معتبرا بأن الدولة البرجوازية، بكل مؤسساتها (الجيش، الشرطة، البيروقراطية)، هي أداة للقمع الطبقي ولا يمكن إصلاحها، بل يجب "تخميمها" و"تدميرها" بالكامل من خلال ثورة عنيفة، لتقوم بعدها البروليتاريا بإنشاء دولة جديدة، هي "ديكتاتورية البروليتاريا"، التي ستستخدم القمع لسحق مقاومة البرجوازية المخلوعة، وبقضائها نهائيا على الطبقات، تنتفي الحاجة إلى الدولة، التي ستبدأ في الاضمحلال تدريجيا، حتى الوصول إلى المجتمع الشيوعي الخالي منها.

ثانيا: الشيوعية عند ليون تروتسكي

1. نظرية الثورة الدائمة:

يعد ليون تروتسكي من ألمع المنظرين الماركسيين الثوريين، وتتجلى مساهمته النظرية الأساسية في "نظرية الثورة الدائمة" التي تقوم على ثلاثة محاور مترابطة:

* لا يمكن للبرجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة أن تقوم بمهام الإصلاح الزراعي، الوحدة القومية، والديمقراطية السياسية، بسبب ارتباطها بالإقطاع والإمبريالية، لذا يجب أن تقوم بها البروليتاريا.

* لا يمكن للبروليتاريا التوقف عندما تستولي على السلطة لإنجاز المهام الديمقراطية عند هذا الحد، بل ستضطر إلى الانتقال مباشرة إلى إجراءات اشتراكية، أي أن الثورة الديمقراطية تصبح "دائمة"، وتتحول إلى ثورة اشتراكية دون فواصل واضحة.

* لا يمكن لثورة اشتراكية في بلد متخلف أن تستمر وتنجح بمعزل عن الثورة العالمية، بل يجب أن تمتد إلى البلدان المتقدمة، وإلا فستواجه التدهور والانحطاط البيروقراطي (خلافا لنظرية ستالين حول "الاشتراكية في بلد واحد"، والتي اعتبرت أن الاتحاد السوفييتي يمكنه بناء الاشتراكية بقواه الذاتية).

2. نقد البيروقراطية الستالينية والدولة العمالية المنحطة:

طور تروتسكي مفهوم "الدولة العمالية المنحطة" لوصف الاتحاد السوفييتي في عهد ستالين، حيث رأى أن الدولة السوفييتية رغم احتفاظها بأساس اقتصادي اشتراكي (ملكية الدولة لوسائل الإنتاج، التخطيط المركزي)، قد سيطرت عليها طبقة بيروقراطية طفيلية تحتكر السلطة السياسية والامتيازات المادية، مفسرا ذلك بعوامل موضوعية مثل: التخلف الاقتصادي والثقافي الموروث، عزلة الثورة الروسية بعد فشل الثورات الأوروبية، الدمار الناتج عن الحرب الأهلية، إنهاك الطبقة العاملة، والحاجة إلى توزيع موارد شحيحة مما خلق جهازا بيروقراطيا للتوزيع، لكنه اعتبر أن هذه البيروقراطية ليست طبقة مستغلة جديدة بالمعنى الماركسي الكلاسيكي، بل طبقة طفيلية مؤقتة تعيش على حساب الدولة العمالية، لذلك دعا إلى "ثورة سياسية" (وليست اجتماعية) للإطاحة بالبيروقراطية مع الحفاظ على المكاسب الاقتصادية للثورة، مؤكدا على ضرورة استعادة الديمقراطية العمالية الحقيقية.

3. الأممية البروليتارية والأممية الرابعة:

رأى تروسكي أن الرأسمالية نظام عالمي لا يمكن هزيمته إلا بثورة عالمية منسقة، منتقدا بشدة سياسة ستالين القومية التي أخضعت الأحزاب الشيوعية العالمية لمصالح الدولة السوفييتية عبر "الأممية الثالثة" (الكومنترن)، لذلك دعى بدلا منها إلى "الأممية الرابعة"، بهدف توحيد الماركسيين الثوريين عالميا على أساس برنامج الثورة

الدائمة والديمقراطية العمالية، ورغم أن الأمية الرابعة ظلت صغيرة ومشتتة، إلا أنها أثرت في حركات ثورية عديدة، خاصة في أمريكا اللاتينية وآسيا.

ثالثا: الشيوعية عند ماو تسي تونغ

1. حرب الشعب طويلة الأمد والثورة من الريف:

نُجِح ماو تسي تونغ في تكيف النظرية الماركسية اللينينية مع ظروف مجتمع زراعي بتقاليد ثقافية مختلفة جذريا عن أوروبا، وتتجلى أهم إسهاماته في تطويره لاستراتيجية "حرب الشعب طويلة الأمد" التي انطلقت من تحليل ميزان القوى بين الحزب الشيوعي الصيني والقوى المعادية (الكومنتانغ، اليابان)، حيث رأى أن العدو أقوى عسكريا واقتصاديا على المدى القصير، لكنه يفتقر للدعم الشعبي ويعاني من تناقضات داخلية، بينما الثوار أضعف ماديا لكنهم يتمتعون بدعم الجماهير وإرادة قتالية عالية، وتقوم استراتيجيته من ثلاث مراحل هي:

***المرحلة الدفاعية الاستراتيجية:** حيث يتجنب الثوار المواجهة المباشرة ويركزون على الحرب الفدائية وبناء القواعد الثورية في الريف.

***مرحلة التوازن الاستراتيجي:** حيث تتوازن القوى ويشن الثوار عمليات أوسع.

***المرحلة الهجومية الاستراتيجية:** حيث ينتقل الثوار إلى الهجوم الشامل لإسقاط النظام.

جوهر هذه الاستراتيجية هو "إحاطة المدن من الريف"، عكس النموذج البلشفي الذي اعتمد على انتفاضة عمالية مسلحة في المدن الكبرى، حيث رأى ماو أن الفلاحين يشكلون الأغلبية الساحقة، لذلك يجب بناء القوة الثورية في الريف أولا ثم الزحف نحو المدن.

2. دور الفلاحين في الثورة الماوية:

خالف ماو الماركسية في منح الفلاحين دورا محوريا في الثورة، وليس مجرد دور مساعد للبروليتاريا، حيث دافع بحماس عن العنف الفلاحي ضد الملاك والأعيان، معتبرا أن الفلاحين الفقراء هم القوة الرئيسية للثورة الديمقراطية، لكنه في نفس الوقت تمسك بضرورة احتفاظ الحزب الشيوعي (الممثل النظري للبروليتاريا) بالقيادة الأيديولوجية والسياسية، لتجنب الانحراف نحو نزعة الفلاحين الصغار العفوية، كما طور سياسة

زراعية مرنة تميزت بالتدرج، بداية بمصادرة أراضي كبار الملاك وتوزيعها على الفلاحين الفقراء، ثم تشجيع التعاونيات الزراعية الطوعية، وفي الأخير تشكيل الكومونات الشعبية التي تجمع بين الإنتاج الزراعي والصناعة المحلية والإدارة الاجتماعية.

3. نظرية التناقضات والجدلية الماوية:

قدم ماو إسهاما فلسفيا مهما في المادية الجدلية حيث طور تمييزا فكريا بين "التناقضات التناحرية" (بين الشعب والأعداء) و"التناقضات غير التناحرية" (داخل الشعب)، فالتناقضات التناحرية لا يمكن حلها إلا بالصراع والثورة العنيفة، بينما التناقضات غير التناحرية يمكن حلها بالنقاش والنقد والتثقيف، كما ميز كذلك بين "التناقض الرئيسي" و"التناقض الثانوية" في كل مرحلة تاريخية، مؤكدا ضرورة تركيز الجهود على حل التناقض الرئيسي، فعلى سبيل المثال خلال الحرب ضد اليابان، اعتبر ماو أن التناقض بين الصين واليابان هو التناقض الرئيسي، مما برر التحالف المؤقت مع الكومنتانغ رغم التناقض الطبقي معه، فهذه المرونة التكتيكية ساعدت الحزب الشيوعي الصيني على التكيف مع الظروف المتغيرة.

4. الثورة الثقافية والصراع المستمر:

رأى ماو أن الثورة الاشتراكية لا تنتهي بالاستيلاء على السلطة السياسية وتأميم وسائل الإنتاج، بل يجب أن تستمر على المستوى الثقافي والأيدولوجي لمحاربة "بقايا البرجوازية" في الفكر والعادات والتقاليد، معتقدا بأن البيروقراطية الحزبية والتكنوقراطيين يمكن أن يشكلوا "برجوازية جديدة" تستغل موقعها لإعادة الرأسمالية، كما حدث في الاتحاد السوفييتي من وجهة نظره، كما دعا إلى "تثوير" مستمر للمجتمع من خلال حشد الجماهير خاصة الشباب، للإطاحة "بالمسؤولين السائرين في الطريق الرأسمالي" داخل الحزب نفسه، حيث أطلق شعار "يحق للجماهير التمرد" ضد البيروقراطية.

5. خط الجماهير والممارسة كمعيار للحقيقة:

طور ماو مفهوم "خط الجماهير" كمنهج للقيادة الحزبية، والذي يتلخص في شعار "من الجماهير إلى الجماهير"، ويعني ذلك أن على القادة جمع الأفكار المتناثرة وغير المنتظمة من الجماهير، وتركيزها ودراستها وتحويلها إلى أفكار منتظمة، ثم العودة بها إلى الجماهير لتطبيقها وفحصها في الممارسة، حيث أكد أن المعرفة تنبع من الممارسة الاجتماعية، وأن "الممارسة هي معيار الحقيقة الوحيد"، كما انتقد كلا من "التجريبية

الضيقة" التي تقتصر على الخبرة المباشرة دون تعميم نظري، و"العقائدية الجامدة" التي تتعامل مع النصوص الماركسية كصيغ جاهزة منفصلة عن الواقع، ودعا بدلا من ذلك إلى "توحيد المبادئ العامة للماركسية مع الممارسة الثورية الملموسة"، مما يعني تكييف الماركسية مع الظروف الصينية الخاصة.

المحاضرة 03 : الفكر السياسي الغربي النقدي

أولاً: الفكر السياسي عند أنطونيو غرامشي

1. السياق التاريخي والفكري لغرامشي:

ولد أنطونيو غرامشي في جزيرة سردينيا الفقيرة عام 1891، وعاش بإعاقة جسدية منذ الطفولة في منطقة مهمشة بإيطاليا، حيث أثرت هذه التجربة الشخصية عميقاً في تفكيره حول علاقات الهيمنة والتبعية، كان من مؤسسي الحزب الشيوعي الإيطالي، كما شارك في حركة المجالس العمالية في تورينو التي حاولت إقامة سيطرة عمالية على المصانع، لكن الحركة فشلت بسبب عزلتها وقمع الدولة، مما دفع غرامشي للتفكير في أسباب الفشل وشروط النجاح الثوري، حيث كتب أشهر كتاباته "دفاتر السجن" وهو مسجون في ظروف قاسية، وكانت من أهم النصوص الماركسية في القرن العشرين.

2. مفهوم الهيمنة عند غرامشي:

يمثل مفهوم "الهيمنة Hegemony" حجر الزاوية في فكره، حيث طرح أسئلة محورية: لماذا لم تنجح الثورة الاشتراكية في أوروبا الغربية المتقدمة رغم نضج الشروط الاقتصادية، بينما نجحت في روسيا المتخلفة؟ لماذا تقبل الطبقات المحكومة سيطرة الطبقات الحاكمة طوعاً؟ كيف تستطيع الرأسمالية الحفاظ على استقرارها رغم أزمتها المتكررة؟ وكانت اجابته بأن سيطرة طبقة على أخرى لا تتم بالقوة المادية فقط، بل أيضاً وأساساً من خلال "الهيمنة" الثقافية والأخلاقية والفكرية، فالهيمنة عنده تعني قدرة طبقة اجتماعية على فرض رؤيتها، قيمها، معاييرها الأخلاقية، وتصوراتها على المجتمع بأسره، بحيث تبدو مصالحها الخاصة كأنها المصلحة العامة لكل المجتمع، فهذه الهيمنة لا تفرض بالقهر، بل من خلال بناء "إجماع" طوعي من المحكومين، إجماع ينبع من اقتناعهم بشرعية النظام القائم أو على الأقل عدم تصورهم لبدائل ممكن له.

3. المجتمع المدني والمجتمع السياسي:

ميز غرامشي بين "المجتمع السياسي" و"المجتمع المدني"، حيث يشمل المجتمع السياسي أجهزة الدولة القمعية المباشرة (الجيش، الشرطة، القضاء، والبيروقراطية الحكومية... الخ)، وهو ميدان السيطرة المباشرة بالقوة، بينما

يشمل المجتمع المدني المؤسسات الخاصة التي تنظم الحياة الثقافية والأيدولوجية (المدارس، الجامعات، الكنائس، النقابات، الأحزاب السياسية، وسائل الإعلام، المنظمات المهنية... الخ) وهو ميدان "الهيمنة الثقافية" أين يتم بناء الإجماع، والدولة عنده تشمل المجتمعين السياسي والمدني، أي الهيمنة المحمية بالقوة القهرية، حيث تحكم الطبقة الحاكمة عبر المجتمع المدني في الحالات العادية، لكن حين تفشل في السيطرة تلجأ لأجهزة القمع في المجتمع السياسي.

4. حرب المواقع مقابل حرب المناورة:

استخدم غرامشي استعارات عسكرية لوصف استراتيجيات الصراع الطبقي، فحرب المناورة تشبه الهجوم العسكري السريع والمباشر للاستيلاء على موقع معين، كما حدث في الثورة الروسية، أين كان المجتمع المدني ضعيفا وهشا، فاستطاع البلاشفة الاستيلاء على سلطة الدولة بانتفاضة عسكرية منظمة، في المقابل حرب المواقع تشبه حرب الخنادق الطويلة، حيث لا يمكن تحقيق نصر سريع بهجوم مباشر، بل يتطلب الأمر نضالا طويلا للسيطرة على مواقع متعددة تدريجيا، وهنا يرى غرامشي أن المجتمع المدني في الغرب قوي ومتجذر ومعقد، وهو يشكل نظام خنادق دفاعية عميقة تحمي الدولة، فحتى لو سقطت الدولة مؤقتا، فإن المجتمع المدني يستطيع إعادة بنائها أو تنظيم مقاومة فعالة لحياتها، لذلك يجب على القوى الثورية في الغرب أن تخوض أولا "حرب مواقع" طويلة لكسب الهيمنة في المجتمع المدني، وبناء إجماع شعبي واسع حول مشروعها، وتفكيك الهيمنة البرجوازية، قبل أن تفكر في الاستيلاء على سلطة الدولة.

5. المثقف العضوي:

رفض غرامشي التصور الشائع عن المثقف كفرد معزول يفكر بشكل مستقل عن المجتمع، بل رأى أن كل طبقة اجتماعية حين تبرز تاريخيا، تنتج معها فئة من المثقفين العضويين الذين يعطونها تجانسا ووعيا بوظيفتها الاجتماعية، ليس في المجال الاقتصادي فقط، بل أيضا السياسي والاجتماعي، فالبرجوازية الصاعدة أنتجت رجال أعمال، تقنيين، محامين، اقتصاديين، صحفيين، هم الذين نظموا ثقافتها ودافعوا عن نظرتها للعالم، فهؤلاء المثقفون يرتبطون فعليا بمصالح الطبقة البرجوازية حتى ولو لم يدركوا ذلك، لذلك على الطبقة البروليتارية أن تنتج مثقفيا بحيث يجب أن ينبثقوا من صفوف العمال أنفسهم، أو على الأقل يكون لهم ارتباط عضوي بتجربتهم ومصالحهم، لا أن يكونوا نخبيين منفصلين عن الجماهير.

6. الكتلة التاريخية وبناء التحالفات الطبقية:

يشير مفهوم الكتلة التاريخية عند غرامشي إلى الوحدة الديالكتيكية بين البنية التحتية الاقتصادية والبناء الفوقي الثقافي-السياسي، والتي تتحقق عبر الهيمنة، فالكتلة التاريخية ليست مجرد تحالف سياسي مؤقت، بل تشكل اجتماعي متماسك يجمع طبقات وفئات مختلفة حول مشروع تاريخي موحد، تقوده طبقة معينة بفضل هيمنتها الثقافية والأخلاقية، فالبرجوازية مثلاً، نجحت تاريخياً في بناء كتلة تاريخية تضم فئات من الطبقة الوسطى، الفلاحين، وحتى قطاعات من العمال، حول قيمها الليبرالية ومشروعها الحدائي، لذلك لكي تنتصر البروليتاريا يجب عليها كذلك بناء كتلة تاريخية مضادة تجمع العمال، الفلاحين الفقراء، المثقفين التقدميين، والفئات المهمشة، حول مشروع اشتراكي بديل، حيث يرى غرامشي ضرورة تحالف العمال الصناعيين في شمال إيطاليا مع الفلاحين الفقراء في جنوبها لبناء كتلة تاريخية ثورية قادرة على تحدي هيمنة البرجوازية.

ثانياً: الفكر السياسي عند روزا لوكسمبورغ

1. السيرة الفكرية والسياسية لروزا لوكسمبورغ:

ولدت روزا لوكسمبورغ عام 1871 في بولندا التي كانت مقسمة بين روسيا وبروسيا والنمسا، في عائلة يهودية، عاشت تجربة القمع القيصري والتمييز القومي، مما شكل وعيها السياسي المبكر، حصلت على درجة الدكتوراه في الاقتصاد السياسي، وانضمت إلى الحركة الاشتراكية الدولية، حيث جمعت بين العمق النظري والنشاط الثوري، فشاركت في ثورة 1905 الروسية، وقادت جناح اليسار الثوري في الحزب الاشتراكي الألماني ضد التيار الإصلاحية، سُجنت بسبب نشاطاتها المناهضة للحرب العالمية الأولى، كما قادت ثورة سبارتاكوس في يناير 1919 أين اعتقلت وقتلت في 15 يناير 1919.

2. نقد المركزية اللينينية:

رأت لوكسمبورغ أن مركزية لينين الشديدة تحمل مخاطر جسيمة على الديمقراطية الثورية، لذلك انتقدت فكرة الحزب الطليعي المكون من ثوريين محترفين منفصلين عن الجماهير، معتبرة أن ذلك سوف يؤدي إلى استبدال نشاط الجماهير بنشاط لجنة مركزية تملّي الأوامر، حيث رأت بأن نموذج لينين يقوم على أقلية منظمة يمكنها الاستيلاء على السلطة نيابة عن الجماهير، وهو ما يتناقض مع جوهر الماركسية التي ترى أن

تحرر الطبقة العاملة يجب أن يكون من صنع الطبقة العاملة نفسها، فالثورة الاشتراكية ليست انقلابا تنفذه نخبة، بل حركة جماهيرية واعية ومنظمة ذاتيا، لذلك فإن الحزب الثوري يجب أن ينبثق من الحركة الجماهيرية ويعبر عنها، لا أن يسيطر عليها من الخارج، كما حذرت من أن المركزية الشديدة والانضباط العسكري في الحزب سيؤديان حتما إلى استبدال الحركة الجماهيرية بالحزب، ثم استبدال الحزب باللجنة المركزية، ثم استبدال اللجنة المركزية بالزعيم، وفي النهاية، بدلا من ديكتاتورية البروليتاريا، سنحصل على ديكتاتورية على البروليتاريا، لذلك دافعت عن ديمقراطية حزبية حقيقية تسمح بالنقاش الحر، الصراع الفكري المفتوح، والتعددية داخل الحزب.

3. العفوية الجماهيرية والإبداع الثوري:

بينما رأى لينين أن الطبقة العاملة، بقواها الذاتية لا تتجاوز الوعي النقابي وتحتاج لحزب طليعي يجلب لها الوعي الاشتراكي من الخارج، آمنت لوكسمبورغ بأن الجماهير تطور وعيها الثوري عبر النضال نفسه، ففي تحليلها لثورة 1905 الروسية، وثورة ألمانيا 1918، أبرزت كيف أن العمال، عبر النضال العفوي، طوروا أشكالاً تنظيمية جديدة (المجالس العمالية) واستراتيجيات نضالية مبتكرة (الإضراب الجماهيري) لم يخطط لها أي حزب، فالحزب الثوري من وجهة نظرها، ليس معلما للجماهير بل طليعة متقدمة منها، يتعلم من نضالاتها بقدر ما يعلمها، ودوره يتمثل في تعميم التجارب، تنسيق النضالات، توضيح الأهداف، ولكن ليس فرض استراتيجيات جاهزة تتجاهل إبداع الجماهير، فالثورة، في نظرها، عملية تعليمية جماعية، حيث تتعلم الجماهير والحزب من بعضهما البعض.

4. الإضراب الجماهيري:

طورت لوكسمبورغ فكرة لشكل نضالي جديد هو الإضراب السياسي الجماهيري، حيث ميزت بين الإضراب الجماهيري النقابي المحدود الأهداف والمدة، والإضراب الجماهيري السياسي الذي يجمع مطالب اقتصادية وسياسية ويتحول إلى حركة ثورية شاملة، فالإضراب الجماهيري ليس مجرد توقف عن العمل، بل شكل من أشكال النضال الطبقي يجمع بين الاقتصادي والسياسي، بين العفوية والتنظيم، بين النقابي والثوري، حيث رأت أن الإضراب الجماهيري لا يمكن "إعلانه" أو "تنظيمه" من قبل قيادة حزبية أو نقابية بقرار بيروقراطي، بل ينبع من تراكم نضالات جزئية تتحول في لحظة معينة، إلى انفجار ثوري شامل، بينما يكون دور الحزب

والنقابات هو التحضير السياسي والتنظيمي لهذه اللحظة، تعميق الوعي، بناء الثقة، لكن ليس "إطلاق" الإضراب كأمر من أعلى.

5. نقد الثورة البلشفية:

دافعت لوكسمبورغ بحماس عن الثورة وعن جرأة البلاشفة في الاستيلاء على السلطة، منتقدة الاشتراكيين المعتدلين الذين أدانوا الثورة، معتبرة أن الثورة البلشفية برغم كل عيوبها، تمثل خطوة تاريخية عظيمة للبروليتاريا العالمية، وأن البلاشفة واجهوا ظروفًا استثنائية من القسوة (الحرب، التخلف، العزلة) تفسر بعض أخطائهم، لكن في نفس الوقت انتقدت نقداً حاداً سياسات البلاشفة في ثلاث قضايا رئيسية:

المسألة الزراعية: انتقدت قرار لينين بتوزيع الأراضي على الفلاحين كملكيات خاصة صغيرة، معتبرة أن هذا يعزز الملكية الخاصة ويخلق برجوازية صغيرة ريفية تعرقل التحول الاشتراكي، حيث فضلت تأميماً فورياً للأرض وإدارتها جماعياً، رغم إدراكها لصعوبة ذلك في ظروف روسيا.

المسألة القومية: انتقدت سياسة البلاشفة في منح حق تقرير المصير للقوميات، معتبرة أن هذا يضعف الثورة ويفتح الباب للقوى البرجوازية القومية، حيث كانت تؤمن بالأمية البروليتارية الصارمة وترى أن الحدود القومية يجب أن تُتجاوز، لا أن تُكرس.

قمع الديمقراطية: انتقدت بشدة قمع البلاشفة للحريات الديمقراطية (حل الجمعية التأسيسية، قمع الأحزاب الاشتراكية الأخرى، وتقييد حرية الصحافة والتجمع)، حيث حذرت من أن الحياة العامة سوف تدبّل تدريجياً دون وجود حرية، وأن النشاط العام للجماهير سيموت تاركاً البيروقراطية وحدها عنصراً نشطاً، وقد توقعت لوكسمبورغ أن هذا الوضع سيؤدي إلى حكم عصابة حزبية ضيقة، ثم إلى ديكتاتورية فردية، وهو ما حدث فعلاً في الحقبة الستالينية.

6. نقد الإمبريالية وتراكم رأس المال:

تساءلت لوكسمبورغ كيف يمكن للرأسمالية أن تستمر في التراكم إذا كانت الأسواق المحلية محدودة بسبب استغلال العمال وعدم قدرتهم على شراء كل ما ينتجون؟ حيث أجابت بأن الرأسمالية تحتاج دائماً إلى أسواق غير رأسمالية خارجية (مستعمرات، بلدان ما قبل رأسمالية) لتصريف فائض الإنتاج وتحقيق التراكم، حيث رأت أن هذا التوسع الإمبريالي ليس مرحلة جديدة من الرأسمالية (كما رأى لينين)، بل ضرورة دائمة

منذ البداية، فالرأسمالية بطبيعتها توسعية واستعمارية لأنها تحتاج لمناطق غير رأسمالية لتستمر، لكن مع استفاد هذه المناطق (رسملة العالم بأسره)، ستواجه الرأسمالية حدودها المطلقة وتدخل في أزمة نهائية.

ثالثا: الفكر السياسي عند ميشيل فوكو

قدم المفكر الفرنسي ميشيل فوكو (1926-1984) تحليلا للسلطة في المجتمعات الحديثة يقوم على

المفاهيم التالية:

السلطة: السلطة في نظره ليست شيئا يمتلكه الحاكم أو الدولة، وليست مجرد أداة للقمع والمنع، بل هي شبكة منتشرة في جميع أنحاء المجتمع، تعمل من خلال مؤسسات (مثل السجون، والمستشفيات، والمدارس)، وممارسات، و"خطابات" (Discourses).

الخطاب: هو نظام من الأفكار والقواعد التي تحدد ما يمكن قوله والتفكير فيه في مجال معين (مثل الطب، أو القانون)، وكل خطاب ينتج الحقيقة الخاصة به، ويحدد ما هو طبيعي وما هو منحرف.

السلطة والمعرفة: هما متلازمان بشكل لا ينفصل، فالسلطة تنتج المعرفة، والمعرفة بدورها تعزز السلطة، فالعلوم الإنسانية الحديثة (علم النفس، والطب النفسي، وعلم الجريمة) لم تكن مجرد أدوات لفهم الإنسان، بل كانت أيضا أدوات للسيطرة عليه وتطبيعها.

المجتمع الحديث: هو مجتمع انضباطي، حيث يتم تدريب الأفراد على مراقبة أنفسهم وتطبيع سلوكهم، من خلال شبكة من المؤسسات، فالسلطة الحديثة ليست عنيفة، بل هي منتجة، تنتج أفرادا مطيعين ومفيدين.

السلطة الحيوية: طور فوكو مفهوم السلطة الحيوية (Biopower)، حيث يرى أن السلطة في العصر الكلاسيكي كانت سلطة سيادية، تتمثل في حق الموت والحياة، أي حق الملك في أن يأخذ الحياة أو يتركها تعيش، أما السلطة الحديثة منذ القرن الثامن عشر، فقد أصبحت سلطة تستثمر في الحياة، وتعمل على جعل الحياة تعاش أو تتركها تموت، وهذه السلطة الحيوية لها وجهان:

***التشريح السياسي للجسد البشري:** وهو يركز على الجسد كآلة، ويهدف إلى تدريبه، وزيادة فائدته، وضمان طاعته من خلال المؤسسات الانضباطية.

***السياسة الحيوية للسكان:** وهي تستهدف السكان كجسد جماعي، ككائن حي له معدلات (مواليد، وفيات، أمراض)، وتهدف إلى إدارة هذه المعدلات من خلال آليات تنظيمية مثل سياسات الصحة العامة، والتأمين، والتخطيط الحضري.

الحكومانية: يرى فوكو أن الحياة (الصحة، الجنس، العمر) نفسها أصبحت موضوعا للسياسة، فالدولة الحديثة أصبحت دولة راعية تدير حياة سكانها من المهدي إلى اللحد، وهذا ما أطلق عليه اسم الحكومانية (Gouvernementalité)، أي فن حكم السكان من خلال مزيج من المؤسسات الانضباطية والآليات التنظيمية.

المحاضرة 04: الفكر السياسي الغربي ما بعد الحداثي

مقدمة:

شهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين تحولات اقتصادية وثقافية وتكنولوجية هائلة، أدت إلى ما أسماه البعض "الوضع ما بعد الحداثي"، فالعولمة، والثورة الرقمية، وصعود مجتمع الاستهلاك والإعلام، كلها عوامل أدت إلى تآكل اليقينيّات القديمة، وتفكك الهويات التقليدية، والشعور بأن التاريخ قد وصل إلى نهايته، أو على الأقل فقد اتجاهه، ومن أهم مفكري هذا الاتجاه نذكر:

أولاً: جان فرانسوا ليوتار (نهاية السرديات الكبرى)

في كتابه المؤثر "الوضع ما بعد الحداثي: تقرير عن المعرفة"، عرف الفيلسوف الفرنسي جان فرانسوا ليوتار (1924-1998) ما بعد الحداثة بأنها "الشك في السرديات الكبرى"، والسرديات الكبرى (أو ما وراء الروايات) هي القصص الشاملة التي كانت المجتمعات الحديثة تستخدمها لإضفاء الشرعية على نفسها، ولإعطاء معنى للتاريخ، ومن أمثلة هذه السرديات:

- **سردية التنوير:** قصة تحرر البشرية من خلال العقل والعلم.
- **السردية الهيجلية:** قصة تحقيق الروح المطلقة لذاتها في التاريخ.
- **السردية الماركسية:** قصة تحرر البروليتاريا من خلال الثورة.
- **السردية الرأسمالية:** قصة خلق الثروة والرفاهية من خلال السوق الحرة.

يرى ليوتار أن هذه السرديات الكبرى قد فقدت مصداقيتها في النصف الثاني من القرن العشرين، فالتقدم العلمي لم يؤد فقط إلى تحرير الإنسان، بل أدى أيضاً إلى القنبلة الذرية والكوارث البيئية، حيث أن الثورات الكبرى لم تؤد إلى الحرية، بل أدت إلى الشمولية ومعسكرات الاعتقال وفي ظل هذا الوضع، لم يعد من الممكن الإيمان بقصة واحدة كبيرة تفسر كل شيء، بل إننا نعيش بحسب ليوتار في عالم من "الألعاب اللغوية" المتعددة والمختلفة، كل منها له قواعده الخاصة، لا يمكن اختزالها في بعضها البعض، فما بعد الحداثة

إذا هو تحول عميق في طبيعة المعرفة والمجتمع، فالمعرفة لم تعد تبحث عن الحقيقة المطلقة، بل أصبحت مسألة "أداء" وكفاءة، والسؤال لم يعد: "هل هذا صحيح؟" بل: "ما فائدة هذا؟" و "كيف يمكن بيعه؟".

ثانيا: جان بودريار (الواقع المفرط والمحاكاة)

يرى بودريار بأننا في العصر ما بعد الحداثي قد انتقلنا من مجتمع قائم على الإنتاج (كما في الماركسية) إلى مجتمع قائم على "المحاكاة" (Simulation)، ففي هذا المجتمع، الذي تهيمن عليه وسائل الإعلام، والإعلانات، والثقافة الاستهلاكية، لم تعد "العلامات" (Signs) تشير إلى واقع خارجي، بل أصبحت تشير إلى علامات أخرى في نظام مغلق، أي أننا فقدنا الاتصال بالواقع "الأصلي"، وأصبحنا نعيش في عالم من "الواقع المفرط" (Hyperreality)، وهو واقع مصطنع، تم إنتاجه من خلال النماذج والصور، وأصبح أكثر واقعية من الواقع نفسه، فالسياسة نفسها قد أصبحت مجرد محاكاة، فهي مسرحية من الفضاء الإعلامية، واستطلاعات الرأي، والصور المصطنعة، لم تعد الجماهير تشارك فيها، بل أصبحت تتلقاها بشكل سلبي كعرض تلفزيوني، وفي عبارته الشهيرة، أعلن بودريار أن "حرب الخليج لم تحدث"، بمعنى أنها لم تكن حربا حقيقية، بل كانت حدثا إعلاميا، تم تصويره وتقديمه لنا كفيلم هوليوودي، مع إخفاء حقيقة الموت والدمار.

ثالثا: جاك دريدا (التفكيك وسياسات الهوية)

التفكيك: التفكيك (Deconstruction) عند جاك دريدا (1930-2004) هو استراتيجية لقراءة النصوص الفلسفية والأدبية، تهدف إلى كشف التناقضات والترائيات الخفية التي تقوم عليها، فكل نص في نظر دريدا يقوم على سلسلة من الثنائيات المتقابلة (مثل العقل/الجسد، الرجل/المرأة، الكلام/الكتابة)، حيث يتم تفضيل أحد المصطلحين على الآخر، ومهمة التفكيك هي قلب هذه التراتبية، وإظهار أن المصطلح المهمش هو في الواقع شرط إمكان المصطلح المهيمن.

التفكيك في السياسة: عندما يتم تطبيقه على السياسة، فإنه يؤدي إلى نقد جذري لكل المفاهيم الأساسية للفكر السياسي الغربي: السيادة، والمواطنة، والدولة، والقانون، فكل هذه المفاهيم، في نظر دريدا، تقوم على استبعاد وقمع الآخر، لذلك فإن السياسة ما بعد الحداثية هي سياسة شك دائم في كل أشكال

السلطة، ودعوة مستمرة إلى التفاوض مع الاختلاف، واستضافة الآخر دون محاولة استيعابه أو ترويضه، ففي أعماله المتأخرة مثل "أطياف ماركس" و"سياسات الصداقة"، حاول دريدا تطوير فكرة عن ديمقراطية قادمة، ديمقراطية لا تقوم على هوية مشتركة، بل على الانفتاح اللامشروط على الآخر.

سياسات الهوية: يرى دريدا أنه مع تآكل السرديات الكبرى القائمة على الطبقة (الاشتراكية) أو الأمة (القومية)، صعّدت أشكال جديدة من السياسة تركز على "الهوية" و"الاختلاف"، فبدلاً من النضال من أجل تحرير "الإنسانية" أو "البروليتاريا"، أصبح النضال يركز على الاعتراف بحقوق المجموعات المهمشة تاريخياً: النساء، الأقليات العرقية والإثنية، المثليون جنسياً، وغيرهم، فسياسات الهوية هذه لا تسعى إلى ثورة شاملة، بل إلى تفكيك هياكل السلطة التي تفرض هوية مهيمنة (الرجل الأبيض، الغربي، المغاير جنسياً) وتقمع الهويات الأخرى.

خاتمة

شهد القرن العشرون صراعاً فكرياً وسياسياً محتدماً، تجلّى في تعدد التيارات وتناقضها الحاد، فبينما أفرزت أزمات الحداثة وإخفاقاتها أيديولوجيات شمولية كالفاشية والنازية، سعت إلى قهر الفرد وإخضاع المجتمع بأسره لسلطة الدولة أو العرق، واجهتها تيارات شيوعية متنوعة سعت بدورها إلى إسقاط الرأسمالية وبناء نظام بديل، وإن اختلفت في مساراتها بين لينين وتروتسكي وماو ولوكسمبورغ، كما أثرى المفكرون النقديون كغرامشي وفوكو هذا المشهد بتحليلات عميقة كشفت الأبعاد الخفية للسلطة والهيمنة الثقافية، قبل أن تأتي موجة ما بعد الحداثة لتزلزل اليقينيّات الكبرى جميعها وتشكك في مفاهيم التقدم، الحقيقة والسيادة.